صاحب السعادة عاصم بك السعيد
— رئيس بلدية يافا —

لسنا ندري وايم الله بما نستهل حديثنا عن هذا العصامي الكريم ، فهل نقدم نسبه على حسبه، أو خلقه على خلقه ، او وطنيته على اخلاصه ، أو حلمه على كرمه ، أو تواضعه على سمو نفسه ، وقد تحلى بجميع هذه الصفات الجليلة، وجمع بينها حتى أصبح أشهر من نار على علم ! بل كيف نستطيع أن نعالج هذا والرجل نفسه يأبى عليه فضله وتواضعه ان يلمح الى شيء من هذا ، بل هو فوق ذلك يستتر في اعماله خفية أن يُعزى اليه الفضل فيُعرف ويُشهر ، وما أحط الشهرة وأحقرها عند نفسه !! قد

يمرّ الوفد في طريقه مثلا الى انجلترا او يعمل الصالحون على تأسيس جامع أو اعانة مؤسسة ، فيتوسلون اليه بعد ان تجود نفسه بما تجود أن يسمح لهم بالتنويه باسمه أو الاشادة بذكره فيرفض بإباء ، مهما الحّوا عليه والحفوا . . . أتدري ماعذره في ذلك : يقول لك بتواضع واخلاص ، هل طلبت الي أن امد يدي اليك مقابل اعلان عن نفسي ؛ واذا كان الأمر كذلك فما فضل الذي يشتري الشهرة بمال ؛ وما فضل العمل الطيب اذا لم يكن خالصاً لوجه الله تعالى ؟؟

يقول الفرنسيون Les grands diseurs ne sont pas les grands faiseurs !

أي ان الثرثارين ليسوا هم العاملين؛ ولست ادري هل اتخذ عاصم بك هذا هذا القول المأثور شعاراً له في أعماله ، أو أن نفسه الكبيرة هي التي خلقت هذا الشعار ؛ ولا مشاحة اذا كانت نفسه النيرة هي التي استحدثت هذا القانون الحكيم فنفس عاصم بك كما يعرفها كل من اتصل به ، نفس عصامية ، عريقة في المجد والسؤدد ، وفيه يقول الشاعر :

نفس عصام سودت عصاما . وعلمته الكرّ والاقداما

واني والله لأحاذر الرجل اذا ما طالع هذه الكلمة أن ينفر مني ويحمل عليّ ، ذلك لأني أعلم يقينا أن كثيرين من أرباب الصحف وأهل الادب توسلوا اليه غير مرة أن ينشروا رسمه ويذكروا تاريخ حياته فيأبي عليهم ويتنكر علهم ... أما أنا فقد عرفت كيف استحصل على الرسم وعرفت كيف اجمع عناصر هذا التاريخ الخالد ولكني اعترف من غير ما وجل أني لا أعرف كيف أنجو من غضبه اذا ما وقعت عينه على هذه الكلمة ؛ ولعلّ اخلاصي وحسن قصدي يشفع لي عنده !!

وبعد فان عاصم بك رجل حقاً ، كريم النفس شديد التواضع كثير الحزم ، حسن السياسة ، لا تعاني أي عسر أو مشقة في استطلاع أخلاقه وسجاياه ، فهو كالبدر الساطع يبهرك مرآه لاول وهلة تقع نظرك عليه ، واذا ما جالسته آنست فيه حلاوة الكلام ورقة الاحساس والافراط في الذكاء والاخلاص ، ولن تترك مجلسه الا ونفسك مسرفة في الرضاء عنه والثناء عليه ؛ ولو كنت احقد الناس عليه وا كثرهم بغضاً له !!

ولد عاصم بك عام ١٨٨٠ من والدين كريمين عريقين في المجد ، ومن لا يعرف سليم بك السعيد وحافظ بك السعيد وما اليهما من أركان هذا البيت الكريم ؟؟

نشأ حفظه الله في تلك الاسرة ، وكان منذ طفولته موضع اعتناء والده المرحوم لما آنسه فيه من بوادر الذكاء والفطنة ، فأحضر له ولاخوته وهم عبد الرؤوف بك السعيد وعزت بك السعيد ويوسف بك السعيد شيخاً يدرسون عليه ، على نحو ما كان متبعاً في ذلك العهد في الأسر الكريمة . ثم بعد ما ترعرع شخص الى المدرسة الرشدية بيافا وكانت يومئذ أكبر مدارس تلك المدينة ، وتخرج منها عام ١٨٩٥ بعد أن نال اجازتها . وكان ذلك العام آخر عهده في المدارس ، فقد انقطع الى العمل في دور الحكومة ، وأخذت نفسه العصامية تسوده وتسمو به ، وهو في جهاده هذا لا يعتمد على معين أو مرشد وانما يعتمد على جده واخلاصه ، شأن الافذاذ من رجالات الامم الذين يخلقون مجدهم بأيديهم ، ويسمون به حيث يشاؤون وتنشأ نفوسهم الكبيرة

وكأن الشاعر يقول على لسانه :

لسنا وإن احسابنا كرمت ... يوماً على الاباء نتكل
نبني كما كانت اوائلنا تبني ... ونفعل مثل ما فعلوا

تعين عاصم بك بعد ذلك ملازماً في محكمة البداية في يافا ، ولم تمض بضع سنوات على عمله هذا حتى رقي وعين معاوناً لكاتب عدل يافا ، ثم كاتباً لمعاون النائب العام ثم عين عام ١٩٠٦ سكرتيراً للمحكمة المختلطة : وبعد ذلك توحدت المحاكم المختلطة والحقوقية والجزائية واطلق عليها اسم المحكمة المركزية فاختير معاوناً لرئيس كتبتها (باشكاتب) مع القيام بوظيفة رئيس الكتبة أيضاً .

وفي عام ١٩٠٩ انتخبه أهل مدينة يافا عضواً نائباً عنهم في مجلس الادارة لمدة عامين . وفي نهاية المدة جددوا انتخابه لعامين آخرين ، ثم لعامين أخرين أيضا ، مما يبرهن على ان الأهلين تخيروا من يمثلهم حقاً وعرفوا أين يضعون ثقتهم ، فوفقوا في اختيارهم كل التوفيق ، وحرصوا على من يمثلهم حرصا شديداً دفعهم الى تجديد انتخابه ثلاث مرات متواليات ، دون أن يتزعزع ايمانهم أو تضعف ثقتهم ،

وهذا ولا ريب منتهى الثقة ومنتهى الاخلاص .

وفي أثناء الحرب الكبرى عرف الأهلون لعاصم بك أياديه البيضاء وحفظوا له أعماله الجليلة بعد اختبار سنة اعوام متوالية ، أظهر فيها اخلاصاً متناهياً ، وذكاء عجيباً ، وحرصاً على مصالحهم ، فانتخب عام ١٩١٥ رئيساً للاعاشة في قضاء يافا وملحقاتها . ومن ثم أخذت الوشاية تعمل عملها عند السفاح التركي المشهور احمد جمال باشا ، وكانت الحركة الوطنية يومئذ تموج في صدور الاحرار المخلصين من الوطنيين ، وفكرة الاستقلال العربي تشغل ادمغة المفكرين من رجالات البلاد ، فأخذ جمال باشا يعمل على قمع هذه الروح المباركة من نفوس المفكرين ويبذل ما في نفسه من قوة وشدة بطش للقضاء عليها قضاء مبرماً ، حتى لا تقوم للامة العربية من بعد هذا قائمة . ولم يجد وسيلا تبلغه ما يصبو اليه سوى ابعاد تلك الرؤوس المفكرة في البلدان العربية . لانها هي مصدر هذا الروح المبارك الذي كان يعده جمال باشا فتنة وتمرداً على الدولة العلية في الاستانة !! شرع جمال باشا في تصييد عظماء الرجال وأخذ يبعدهم عن بلادهم ويذيقهم أنواع الآلام وضروب المحن ، وهو — تبت يداه — لم يكتف بهذا بل قضى على أعظم مفكري نخبة من أفضل ما أنجبت البلاد العربية ، فشنق بعضهم في ساحة دمشق ، عروس البلاد العربية ، وشهيدة الفرنسيس اليوم وغير بالآخرين غدراً أثيما محزناً ... وكان عاصم بك أحد هؤلاء المبعدين فنفاه السفاح في ١٦ تشرين الثاني عام ١٩١٦ الى قونيه من اعمال الاناضول ، مع عصبة من رجالات مدينة يافا وغزه ، بعد أن غدر السفاح برجل يافا الكريم حافظ بك السعيد عم عاصم بك وادّعى زوراً وبهتاناً أنه توفي الى رحمة ربه !! .

أقام عاصم بك في قونيه عشرين شهرا ، بعيدا عن أهله ووطنه ، ولكنه لم يقم على الضيم ولم يصبر على الذل ، فر الى نابلس ومكث فيها يتحين الفرص ليلحق ببلده . وبينما عاصم بك في نابلس ، لم يشأ أن يغادرها دون أن يترك له أثرا فيها ، ولو كان ذلك الاثر فكاً طلياً . . . فيروى ان عاصم بك رأى بيتاً خاليا في ضواحي المدينة فطلب الى صاحبه أن يؤجره إياه ، ولكن صاحب البيت أبى عليه ذلك بحجة أن البيت (مسكون) أي تسكنه الجن ، وقد سكنه اناس من قبل فتكت بهم الجن .

فضحك عاصم بك من الرجل وقال له : بل لابد من سكناه ، وأنا أعرف كيف أتخلص من الجن ! فقال الرجل لست آمن عليك ، ومع ذلك فاذا الححت في الطلب فاني اؤجرك البيت على ألا أكون مسئولا عما يحدث لك ، فرضي عاصم بك بهذا الشرط وتوجه الى البيت البديع وفي اليوم التالي أخذ صاحب الدار جماعة من أصحابه وقادهم الى البيت ليستطلعوا الخبر : وبينما هم في الباب يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى اذ بعاصم بك يجيبهم : فدهشوا لنجاته وقالوا هل نجوت ، وكيف نجوت ؟ تعال فاقصص علينا خبرك مع الجن ! ! فقال لهم عاصم بك : ايها السادة إن الجن لتسكن عقولكم وليست تسكن بيوتكم وانصرفوا . . .

وبعد احتلال يافا شخص عاصم بك اليها ، فرحب به أهل المدينة ومكث بينهم شهرا ، الى أن كلفت الحكومة الجمعيات الاسلامية المسيحية انتخاب هيئة للمجلس البلدي ، فوقع اختيارهم على عاصم بك وعينته الحكومة رئيسا للبلدية في ٧ كانون ثاني عام ١٩١٩ ، وهو لا يزال اليوم رئيسا لها يعمل بجد ونشاط على اصلاح المدينة وتقدمها . وأنت ترى أن عاصم بك تولى رئاسة البلدية منذ عام ١٩١٩ وها نحن اليوم في عام ١٩٢٧ ، وهو لا يزال متمتعا بالثقة التامة من أهل المدينة والحكومة . وقد شرع الاهلون بناء على قانون الحكومة الجديد ، في انتخاب هيئة البلدية ، فاظهر الاهلون ثقتهم التامة برجل مدينتهم الفذ الذي برهن في السبع سنوات التي تولى فيها رئاسة البلدية على أنه شديد الحرص على خدمة ابناء بلده كثير الاهتمام بتقدم البلاد عاملا نشيطا مخلصا ، لا ينافسه في مقامه منافس ، ولا يضارعه مضارع . ويثبت ذلك ما لعاصم بك من المقام الفريد في نفوس ابناء البلاد اجماع اللجنة المشرفة على انتخابه رئيسا عليها ، دون أن يشذ من بينها صوت واحد ؛ ولسنا نحاول أن نشيد بما قام به عاصم بك من الخدمات الجلى لمدينة يافا ، فذكر هذه النتيجة وهذه الثقة التي أولاه اياها ابناء بلده الكرام على اختلاف مذاهبهم ، تكفينا مؤونة البحث والاطناب

والواقع أن كل ما نجده في يافا من مظاهر التقدم والرقي ، وكل ما تشعر به من النشاط المادي بأنواعه والنشاط الادبي يرجع فضله الى عاصم بك والى روح التعاون الطيبة التي أمده بها أهل البلاد على اختلاف مذاهبهم . انظر الى تلك الشوارع

الواسعة ، والى تلك الابنية الزاهرة ، والى تلك المؤسسات الخيرية من جوامع ومستشفيات وما الى ذلك من عوامل النشاط والتقدم ، ومن ثم احكم على هذه العبقرية الفذة التي اودعها الله هذا الرجل الكريم ، ليعمل باخلاص ونشاط على خدمة وطنه العزيز ما شاء الله أن يعمل!

أما بعد فلا نحسب انفسنا مهما حاولنا الوصف أن نفي سعادة عاصم بك السعيد حقه من التقريظ ، ولا نحسب غيرنا يوفق الى ذلك لما يظهره عاصم بك من التواضع في أعماله ، معتقداً بأن الذي يرغب في خدمة بلاده ينبغي له أن يخدمها مجرداً عن كل مطمح وغاية ، بعيداً عن كل ضجة فارغة . وهو بهذا يطبق ما يقول المثل الفرنسي السائر : L'amitié ne marche pas avec un grand fruit !

أي أن المحبة لا تسير مع الجلبة والضوضاء ! وهذه لعمري مفخرة أخرى نضمها الى مفاخر عاصم بك ، لان هذا الوباء الفظيع ، وباء الجمجمة الفارغة اصيب به الكثيرون من أبناء البلاد ، فأفسد عليهم مشاريعهم وباءوا بالخسران المبين ...

الحوذي وفكتور هوجو

دعا فكتور هوجو جماعة من أصدقائه لتناول الغداء على مائدته ولما التأم عقدهم دخل عليهم رجل في الاربعين من عمره فاحتفى به الشاعر وقدمه للمدعوين بقوله : أتشرف بأن أقدم لكم المسيو شارل مور الذي أركبني بعربته الى مسرح هيتيه يوم احتفلنا بمرور عام على وفاة فولتير وأبى أن يتقاضى أجرة العربة . وفي الواقع أن هوجو عندما أراد أن يدفع له الاجرة رفضها بإباء وشمم وقال : لا آخذ أجرة ويكفيني شرفاً أنك ركبت عربتي .

ولكن الشاعر دفع له رغماً عنه عشرين فرنكا أخذها الحوذي ودفعها لادارة جريدة « رابيل » التي افتتحت تبرعا للمسجونين السياسيين وكتب أمام المبلغ : الحوذي شارل مور يتبرع بعشرين فرنكا وهي قيمة مادفعه له فكتور هوجو أجرة عربته

ولم يدر الشاعر ما يفعله مع الحوذي فدعاه لمناولة طعام الغداء على مائدته .